حول «شفاء السائل»

(بتحقيق بن تاويت الطنجي)

بنسالم حميش*

إن موضوع حديثنا هو «شفاء السائل لتهذيب المسائل» لأبي زيد عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي (المتوفى في 808 هـ)، ونعتمد على تحقيق العالم محمد بن تاويت الطنجي الذي عارض الكتاب بأصوله وعلّق على حواشيه وقدم له. وباعتراف كثير من المتخصصين، يعتبر هذا التحقيق إلى يومنا هذا أدق التحقيقات وأشملها للكتاب المذكور. وفي المقدمة المستفيضة الغنية، التي وضعها المحقق له (إستنبول فاتح محرم 1378هـ)، وهي تكاد تعادل كماً نص الكتاب نفسه نقرأ إجابات دامغة وموثقة على ثلاثة أسئلة مركزية : 1 - هل مؤلف «الشفاء» هو ابن خلدون صاحب «المقدمة» و«كتاب العبر»؟

---

* أستاذ بكلية الآداب - جامعة محمد الخامس، الرباط

2 – لماذا ألفه؟ 3 – أين ومتى ألفه؟

بدءاً بالسؤال الأخير، كل الحجج والقرائن التي يعتمدها بن تاويت الطنجي تشير إلى أن تأليف الكتاب كان بالمغرب الأقصى، ما بين 774 و776هـ. فنسخة الكتاب الأولى لم تعرف خارج المغرب (إذ مالك أصلها هو الحسن بن مسعود اليوسي المتوفى في 1111هـ)، وأن هذا الأصل أو صنوه كان في خزانة عبد الرحمن بن زيدان، ولم تنقل نسخة منه إلى مصر بواسطة أبي بكر التطواني الكتبي إلا في 1949م.

أما السؤال الأول حول نسبة «الشفاء» لابن خلدون فقد أتى ابن تاويت فيه بالجواب الفصل إذ أنه، خلافاً لما ذهب إليه عبد الله المسناوي وأبو العباس ابن عجيبة، أثبت تلك النسخة ونفاها عن أب صاحبها وأخيه لكونهما توفيا في النصف الأول للقرن الثامن الهجري، بينما يعود «الشفاء» إلى أواخر هذا القرن.

وأما لماذا ألف ابن خلدون «الشفاء»، فسنجعله محور هذا العرض حتى يتسنى لنا تحليل مضمون الكتاب والوقوف على بعض ما ذهب إليه بن تاويت في الموضوع نفسه.

يمكن اعتبار «شفاء السائل»[1]، والذي لا شك إذن في نسبته إلى ابن خلدون، مساهمة في المناظرة التي يبدو أنها جرت خلال 774\776هـ وأثارها تقييد أرسله أبو إسحاق الشاطبي من غرناطة إلى ابن عباد الرندي وأبي العباس القباب المقيمين في فاس، يستفتيهما فيه حول مسألة اتخاذ الشيخ في سلوك طريق التصوف هل هو لازم أو لا، أو بعبارة أخرى : هل يصح هذا السلوك بالمريدية المسترشدة بشيخ أو إمام مطاع أم بالعصامية المعولة على المجاهدة الذاتية والتحصيل من الكتاب الصوفي. وما نراه في أمر ابن خلدون – قطب اهتمامنا – هو أن تأليفه في هذا الموضوع (الذي تضارب القوم حوله بالنعال) عمل فتي بسبب هيمنة العامل النفسي على كل العوامل الأخرى التي حدت بصاحبه إلى وضعه. فكيف ذلك؟

---

1 – ابن خلدون، «شفاء السائل لتهذيب المسائل»، تحقيق بن تاويت الطنجي، ط إسطنبول 1958.

إن سؤال تلك المناظرة - وهو أساساً من باب التصوف - قد وضعه فقيه مالكي متشدد، صاحب كتابين في الأصول : «الاعتصام» و«الموافقات»؛ أبو إسحاق الشاطبي الذي لا يظهر أن مؤرخنا كان يكن له تقديراً خاصاً، إذ أنه لا يذكره في أي من كتاباته. أما المفتيان في المسألة المذكورة فلا يبدو أنهما من أكابر علماء العصر في مجال التصوف و لا في غيره. فابن عباد الرندي الذي أفتى بوجوب اتخاذ الشيخ في سبع عشرة ورقة يعترف بقصور باعه في فن التصوف[2] فضلاً عن أنه يتحفظ في شأن مقولة الأحوال والمقامات التي هي عماد الطريق الصوفي؛ هذا في حين أن جواب الفقيه المعروف بالقباب قد أتى في سبع ورقات ملتبساً ومتملصاً أحياناً رغم موافقته عموماً لرأي ابن عباد ...

يقر بن تاويت أن المتناظرين المذكورين «لم يكن لهما نصيب من هذا اللون من التفكير»[3] ويقصد به علم العمران والتاريخ. وابن خلدون انطلاقاً من عدم رضاه على مستواهما الفكري، وبالتالي على أجوبتهما الهزيلة المتعجلة، فقد أخذ بزمام المسألة وعرض على من يريد العلم الأوفى الجواب الجامع المانع، الذي يثلج صدره ويشفي تردده وارتيابه. وبما أنه بكل هذا يساهم في مناظرة لم يُدْعَ إليها (أي «شارك ولم يُسْأل»، كما كتب ابن تاويت) فقد صار يواسي مراراته بإطلاق فورات كبرياء من شأنها التقريب بين صورته الذاتية كعالم بالفعل وليس فقط بالقوة وبين صورته في أعين الآخرين، وهي صورة لا تعكس إلا مكانته المعروفة إذ ذاك كرجل سياسة ووظائف أميرية ليس غير. وقد تجلت تلك الفورات الاستعلائية في ردود الفعل الآتية :

- إعطاء عنوان صاخب قطعي لمساهمته : شفاء السائل لتهذيب المسائل؛
- السكوت عن أسماء المتناظرين، مع الإشارة العابرة في مطلع

2 - انظر الرندي، «الرسائل الصغرى»، طبعة بول نويبا، بيروت، 1958، ص 106-115، أو في «شفاء السائل»، ص 111-127.

3 - «شفاء السائل»، ص «كد».

«الشفاء» إلى مصدر السؤال، «عدوة الأندلس»، من دون ذكر أي تاريخ حوله؛

– السعي إلى التفوق على كل المتناظرين مجتمعين، وذلك بالإجابة عن سؤال ليس بوريقات بل بتأليف، هو عبارة عن استعراض للقوة، لا يباشر الموضوع إلا في فصليه الرابع والخامس، وما سواهما عروض في تاريخ التصوف منقولة أو مقتبسة عن الغزالي والقشيري وابن الخطيب، كما أظهر ذلك بن تاويت باللوحات النصية المقارنة، معلقاً عليها بخلاصة في غاية الوجاهة والصواب في قضية التأثير والتأثر، إذ يسجل : «وأهم ما يجب التنبيه إليه بصفة عامة، في هذا البحث وفي غيره، أن ظهور الفكر أو الأفكار عند مؤلفين، أحدهما متقدم الزمن والآخر متأخر، لا يكفي وحده للقول بأن اللاحق قد أخذ عن السابق فالفكر الإنساني في محاولة للوصول إلى حقيقة من الحقائق لا يخضع لقانون التأثير والتأثر، والعلة والمعلول كما تخضع المواد الجامدة له، بل هو في الأغلب من أحواله يتبع في سيره طرقاً كثيراً ما تكون ملتوية معقدة»[4].

إن تلك الردود الفعلية الثلاثة تأوي الأسباب التي تدفعنا إلى اعتبار «شفاء السائل» مؤلفاً فتياً لا يتفوق على «لباب المحصل» إلا بقليل، وأنه إجمالاً من أعمال ابن خلدون الصغرى.

موقف الفصل بين المتناظرين عند مؤلفنا هو اشتراط الشيخ في المجاهدة وتوكيد الحاجة الماسة إليه. لكن الشيوخ في تصوره صنفان : منهم من تسلطت عليهم الأحوال فملكتهم، ومنهم من تسلطوا على الأحوال فملكوها. وعنده أن الصنف الأول لا يقتدى به، والصنف الثاني يعتد ويحتذى به لأن ممثليه وحدهم قادرون على ترويض المريد والحيلولة دون سقوطه في «بيداء الوهم» ومهاوي التسيب والانزياح المفضية في آخر المطاف إلى الشطح وادعاء المشاهدة والمكاشفة، وحتى إلى التحلل من الموانع والمحظورات الشرعية. وبعد تعداد مخاطر اتباع طريقة المملوكين والمجاذيب، كإتلاف البدن والعقل، والدعوة إلى ما لم

---

4 – «شفاء السائل»، ص «لو».

يأذن به الله، و«اليأس من روح الله في السلوك»، يفصح ابن خلدون عن بيت القصيد في موقفه حين يقول : «ولم نر فيمن تقدم أو تأخر من ثبت تحت إيالة شيخ سني محقق اتفق له شيء من هذا»[5]. وهكذا يكشف الغطاء عن مساهمته في سعي الحكم المركزي والفئات الدائرة حوله بفاس وغرناطة إلى إخضاع جماعات المريدين للتأطير السني وبالتالي إزالة كل فتائل الفتن الصوفية والحركات المهدوية.

إن موقف مؤرخنا من القضية المذكورة يجانس إلى حد كبير موقف مفكرين وعلماء منها، كانوا شديدي الصلة بحكام أزمانهم كمعاصره وصديقه ابن الخطيب ذي الوزارتين، صاحب «روضة التعريف بالحب الشريف»، وقبل هذا بثلاثة قرون كالقشيري واضع «الرسالة» والمقدم لدى ألب أرسلان السلجوقي، وكمؤلف «الإحياء» الإمام الغزالي أستاذ المدرسة النظامية في بغداد ونيسابور ومناصر الخليفة العباسي المستظهر بالله ووزير الدولة السلجوقية نظام الملك وابنه فخر الملك. بل إن ابن خلدون الذي يكثر من الاستشهاد بهؤلاء الأقطاب الثلاثة معززين بأبيهم الروحي المحاسبي يزيد عليهم - والعصر عصر سيادة الفقه داخل الثقافة العالمة - في محاولة تسنين التصوف وترويض المريدين على نحو يتلازم فيه وجه الشيخ بوجه الفقيه ويمتزج، فيغدو سلوك الصوفي - بعيداً عن كل طمع في التجلي والمشاهدة - عبارة عن مجاهدة لاكتساب التقوى والاستقامة طبقاً لما يقضي به القرآن والسنة. وهكذا يذهب صاحب «الشفاء» إلى حد تسمية التصوف «فقه التصوف» المختص بعمل القلب في مقابل «فقه الظاهر» المهتم بعمل الجوارح. غير أن هذه المحاولة في فرض وصاية الفقه على التصوف وإدراج هذا في حرمة ذاك قد أتت متأخرة عن أوانها، بما أن الشرخ بين الحقلين قد حدث

---

5 - «شفاء السائل»، ص. 16.

منذ القرنين الثالث والرابع للهجرة وانعكس حتى في المصطلح واللغة[6] حتى إن أبا طالب المكي - الذي لا يلمح إليه ابن خلدون إلا مرة واحدة[7] - يقول في إحدى ثوراته : «علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله».

ختاماً قد لا نخطئ الصواب إن اعتبرنا «شفاء السائل» عملاً فتياً محكوماً باستجابة لدعوة سياسية صريحة أو خفية إلى مناهضة فشو التصوف الشعبي والزوايا، وتقرير شروط إمكان كل مريدية داخل أطر التعليم والتربية السنية السائدة. فهل لهذه الأسباب جميعها لم يذكره ابن خلدون أبداً في أعمال نضجه التي ستبدأ في السنة الموالية لتاريخ المناظرة المذكورة، أي في 775هـ\1375م حين تفرغ لكتابة «المقدمة» في قلعة ابن سلامة، كما لم يذكره، حسب ثبت بن تاويت نفسه، ابن الخطيب في «الإحاطة» ولا ابن الأحمر في «نثر الجمان».

إن سكوت مؤرخنا عن مؤلفه ذاك في فصول مخصوصة من المقدمة (وهي «التصوف» و«تعبير الرؤيا» و«علم أسرار الحروف») كما في سيرته «التعريف» لأمرٌ محير حقاً - ويرى بن تاويت فيه ما يلي : «والجواب عندنا - بناء على ما خبرناه من نفسية صاحبنا - أنه لا يدل على شيء آخر في هذا الصدد؛ فابن خلدون لم يكن يعنى باستقصاء مؤلفاته، وما ذكر منها إلا ما كان مقدماً لملك من الملوك، أو عظيم من العظماء، أو في مقام يدعو إلى الافتخار - ففي هذه المواطن وحدها كان مؤلفنا حريصاً على التحدث عما قال أو كتب، سواء كان هذا المقول أو المكتوب كبيراً أو صغيراً»[8].

ونجتهد نحن أو نحاول ذلك أكثر مما فعله محققنا الجليل، فنرى

---

6 - مثلاً : العلوم التعليمية - العلوم الإلهامية \ البحث في الأقاويل والأدلة - المجاهدة \ علم - معرفة \ عقل - ذوق، قلب، بصيرة، إرادة \ شريعة - حقيقة، طريقة\علم اليقين - عين اليقين\ الاستدلال - الوصول \ عمل الجوارح - عمل القلب \ عبادة - خدمة \ظاهر - باطن...

7 - «شفاء السائل»، ص. 9.

---

8 - «شفاء السائل»، ص «ك».

أن ذلك السكوت لا يجد تفسيره في مجرد سهو أو نسيان، بل على الأرجح في ميل المؤلف إلى استصغار نتاج لا يبعثه على الفخر، نتاج وليد قضية سيئة الانطلاق، «شارك فيها ولم يُسأل»، قضية زاخرة بالمزايدات، حتى إن تقييده دفعه إلى تشريع العنف في حق كتب صوفية من الأمهات، فأفتى بما لا يشرفه، وهذا نصه : «وأما هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة، وما يوجد من نسخها بأيدي الناس، مثل «الفصوص» و«الفتوحات المكية» لابن العربي و«البد» لابن سبعين و«خلع النعلين» لابن قسي، الحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار، والغسل بالماء، حتى يمتحي أثر الكتابة لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين، بمحو العقائد المختلة فيتعين على ولي الأمر إحراق هذه الكتب دفعاً للمفسدة العامة، ويتعين على من كانت عنده التمكين منها للإحراق»[9].

إن هذه الفتوى - التي ينشر بن تاويت نصها كاملاً - تزيد في إظهار ضلوع صاحبها في الوعي الحضري السني، المتشبع بامتياز الأمر الفقهي والآداب الوضعية. ومن هنا فهو يلتقي في آخر الأمر مع موقف فقهاء عصره حول ضرورة اتخاذ السالك لشيخ التعليم، وحتى لشيخ التربية، وقد ذهب ابن عباد إلى الإلحاح على تلك الضرورة، ولو كانت بضاعة الشيخ من العلم ضعيفة، خصوصاً حسب قوله، «في هذا الزمان الذي بلغ الغاية في الفساد»[10].

إن المناظرة التي هي موضوع «الشفاء» - وهذا ما لا تبرزه مقدمة بن تاويت - تشير إلى قلق الفقهاء والحكم المركزي، حتى في زمن ابن خلدون، من تفشي ظاهرة التصوف الشعبي برُبطه وزواياه لاسيما في البوادي، وبالتالي تنامي مجال الدعاة والثوار من طلبة السلطة. فكان التوجه عند أولئك الفقهاء يروم ترويض التصوف وتقنينه بالتعويل على تأطيرات الشيوخ المعتدلين، القادرين على تهذيب المواجد والأذواق وإخضاعها للشريعة والمهادنة الاجتماعية. وهذا ما يفسره بالذات بروز دور الشاذلية كزاوية حضرية متشبعة بالمالكية

9 - «شفاء السائل»، ص 110-111.

10 - انظر الونشريسي، «المعيار»، ط الرباط، 1981، ج 12، ص. 297.

كما يفسر مواجهتها - هي الآتية من الشمال - للمد الصوفي القروي الجنوبي. وقد تقوى دور هذه الزاوية أكثر حين تبنت مطالب الأشراف بالاعتراف بحقوقهم، خصوصاً في أواخر العهد المريني، ودفاع الجزولي تلميذ الشاذلي، عن حركتهم، قائلاً بانتسابه إليهم. وكل هذه علامات لهيمنتهم في الفترة الوطاسية الانتقالية وقيام دولتهم الأولى مع السعديين في أوائل القرن 10هـ (16م).